النيل كان وسوف يظل مصدر سعادة المصريين ومصدر شقائهم ايضا. فمتى فاض النيل عمت السعادة والرخاء على البلاد، ومتى هبط تحل المجاعة. وأنه كان بالفعل رمانة الميزان بين تقدم عصر من العصور وأفول أخر.

تمهيد:

شهد المجتمع المصري عبر حقبه المختلفة أحداثاً عديدة، كان بطلها فى كل مرحلة هو النظام الحاكم . الذى ساهم بشكلٍ كبيرٍ فى صنع حضارة تُعد من أعظم حضارات الدنيا، امتدت لسبعة آلاف عامٍ، ولا يزال المصريون يعيشون على ثمارها إلى يومنا هذا. وبرغم ما حققته نُظم الحكمِ هذه من انجازات جعلت من مصر على مرالتاريخ بوابة العالم بل أماً للدنيا كلها . إلا أن هذا لم يكن هو الحال دائماً، فالعصر الفرعوني - مثلاً- كان من أول العصور التي شهدت قيام أول ثورة للجياع، ليس فى التاريخ المصري فحسب، بل ربما فى تاريخ البشرية كلها. وجاء وصف هذه الثورة بشكلٍ واضح في برديات أيبور، ذلك الحكيم الفرعونى العظيم والتى ضمت توصيفاً كاملاً، ونصائح خالدة للملك "بيبي الثاني"، الذى حكم البلاد لأكثر من ستةٍ وتسعين عاماً؛ انتهت بثورة عظيمة، تمكن بها الشعب المصرى من خلع حاكمه المستبد المُغَيّب. وبرغم نجاح تلك الثورة فى خلع الملك والقضاء على فكرة الحاكم " الإله"، إلا أن التضحيات كانت جسيمة. فيذكر المؤرخون أن الدولة المصرية ظلت فى حالة أشبه بالفوضى لأكثر من مائةٍ وثمانين سنةٍ إلى أن استقرت بعد ذلك . كما لم ينس التاريخ أن يُذكرنا بالاضراب الذى نظمه العاملون في عهد رمسيس الثالث الذى صار على نهج سلفه، رمسيس الثانى، حين ارتفعت الأسعار دون أن يتبع ذلك زيادة فى رواتب العمال فنظموا أول اضرابٍ فى تاريخ مصر وربما فى التاريخ أيضاً. ومابين تلك الثورة وهذا الاضراب تدور أحداث هذا الفصل ؛ والذي سنعرف من خلاله ظروف تلك الأحداث وتداعياتها، لنُجيب على السؤال المهم : متى ولماذا ثار الفراعنة على الإله الحاكم ؟

أولاً : أنشودة الفرعون الجائع:

نـــامي جيـــاعُ الشـعبِ نـــامي

حَرسَتكِ آلهةُ الطعامِ

نامي فإن لم تشبعي

من يقظةٍ، فمن المنامِ

نامي على زيفِ الوعُودِ

يـُذاق في عَسلِ الكلامِ

نـــامي تَـزُركِ عــرائسُ الأحـــلامِ

في جُنـــْـح الظـلامِ

تتنوري قرصَ الرغيفِ

كدوّرةِ البدرِ التمـــامِ

وتَري زرائيلَ الفساحِ

مبلطـــــاتُ بالرخـــامِ

نـــامي جيـاعُ الشعـــــبِ نـــامي

* * *

بهذه الأبيات الشعرية البسيطة لخَصَ الحكيم المصري القديم أيبوور في برديته الشهيرة، والمعروفة بـ " بردية " أو مخطوطة أيبور، أحداث الثورة الأولى للجياع فى تاريخ مصر. والتى عبر عنها " الجوهرى" فى العصر الحديث، وقد كان " أيبوور"، الحكيم المصري القديم، هو أول من كتب عن الثورات فى التاريخ، ففي مطلع القرن الثامن عشر الميلادي تم اكتشاف بردية قديمة في منطقة منفيس قرب أهرامات سقارة، والحقيقة أنه لا يُعرف بدقة تاريخ العثور عليها، وكان المتحف الوطني في ليدن بهولندا قد اشتري هذه البردية في عام ١٨٢٨ م، وهي عبارة عن مخطوطة فرعونية مكتوبة في سبع عشرة صفحة باللغة الهيموغلوفية القديمة تعود إلى عصر الفراعنة، بعض العلماء قدر أنها ربما تعود إلى المملكة الوسطى ولكن ليس هناك دليلٌ مؤكد يُحدد متى كُتِبت، أوإلى أي أسرة فرعونية تعود، وقد أُطلِق عليها فيما بعد بردية أيبوور، وقد تُرجِمت من اللغة الهيموغلوفية الفرعونية القديمة في عام ١٩٠٨م.

وقبل أن نتحدث عن ماجاء في نصوص تلك البردية، فإنه يحسُن أن نشير إلى أن العصر الفرعوني ينقسم الي عددٍ من الأسْرات، تبدأ بعصر الدوله الفرعونيه الأولي في عهد الملك مينا، المعروف والمُلقب بـ " مُوَحِد القطرين "، والتي تم خلاله توحيد الشمال مع الجنوب . وعادة ما تبدأ كل أسره حكمها بحكام أشداء، أقوياء، ثم سرعان ما يسري الضعف في أوصال البلاد فتقوم أسره ثانية بتولي مقاليد الحكم . وهكذا استمرت الأمور حتي نهاية عصر الأسرات.

اعتباراً من نهاية عصر الأسرة السادسة، والتي حكمها الفرعون، الملك " بيبي الثاني " زهاء ستةٍ وتسعين عاماً. تبدلت خلالها أحوال البلاد وصارت في حالةٍ من الفوضي الشاملة سارت بها على طريق الضعف. فوصل حال الشعب المصري الي الحضيض في أواخر عصر الأسرة السادسة،وأصبح الانفجار قادماً لا محاله، وهو ما سجله الحكيم أيبوور بدقة في برديته المحفوظة في متحف لاهاي بهولندا، وكذا برديه " نفرتي "، المحفوظة في متحف روسيا.

يقول الحكيم أيبوور:

* لقد انقلبت البلاد الي عصابات، ولم يعُد الناس يذهبون للحقول، و امتنع الشعب عن دفع الضرائب، وتوقفت التجارة مع البلاد المُحيطة.

* هجم الناس علي مخازن الحكومة فنهبوها وعلي مكاتب الدولة فأحرقوها، واعتدوا علي مقابر الموتي، حتى الأهرامات ومدافن الموتى لم تسلم أيضاً من السرقه والنهب.

* صب الناس انتقامهم علي الأغنياء، فنهبوا القصور و أحرقوها، وصار أصحاب القصور لا يجدون الطعام ويتسولون قوت يومهم .. أصبح الشعب سعيداً. ثم يسخر أيبور مما كان يحدث فيستطرد قائلاً :

* إن الاصلع الذي لم يكُن يستخدم الزيت أصبح يمتلك الأواني المليئة بخير أنواع العطور، والفتاة التي كانت تذهب للنهر لرؤيه وجهها، أصبحت هي الأخرى تملك مرآة في المنزل .

هذا وقد تفاقم الأمر ولم يقف عند هذا الحد فاستطرد يقول :

* صب الشعب غضبه علي الأغنياء، فكانوا يقذفون بهم الجدران، وترك بعض الناس أطفالهم في الشوارع عسي أن يجدوا من يلتقطهم و يكون قادراً علي إطعامهم .

*وأصبح رجال الأمن فى مقدمه الناهبين للقصور و المعابد، وانهارت الحكومه المركزيه و صارالأغنياء في كربٍ عظيم و الفقراء في فرحٍ شديد.
* وظهرت مقولات وتعبيرات جديده مثل: لا سلطان لمن في السماء علي الأرض، و أن الأرض لمن يحرثها، حتي لقد اضطر رجال الدين و ماتبقي من الأغنياء إلى هجرة البلاد .
لقد ثار الفلاح الصابر المطيع علي الظلم ولم يفرق بين معبد لإله أو مكتب لحكومة، أو قصر لغني، وبالطبع لم يكُن مُمكِناً أن تستمر هذه الحالة للأبد، فبعد امتلاء الأنهار بالجثثِ، و جفاف المزارع . عاد الفلاح إلي حقله ليزرع و ينتج ولكن بعد أن انتقم من حكامه الظالمين .

وكما رأينا في هذه البردية، تحدث "الحكيم" أيبوورعن الأسباب السياسية والاجتماعية التي أسقطت الدولة المصرية القديمة وأدت بها إلي حالة من الفوضي وانتشار الرعب في ربوع البلاد، وتغيُر أخلاق الناس وسلوكياتهم المعهودة، والتَحوُل من فساد المناخ السياسي السابق للثورة، إلي فساد المناخ العام كله، فقد جَدَبت الأرض عن إخراج زرعها و توقف العامل عن صناعته وفقد الناس الشعور بالأمن، وكأن أيبوور كان يقرأ المستقبل فى آلة الزمن، و يتنبأ بما سيحدث على نفس الأرض بعد أكثر من أربعة آلاف سنة.والحقيقة أن التاريخ ذاخرُ بثورات البحث عن العيش الكريم والكرامة الإنسانية والعدل الاجتماعي إنها الثورات التي عرّفها التاريخ ووصفها بـ " ثورات الجياع ". وقد سجل المصريون في مختلف الأزمان صفحات وصفحات من المجد، حين وقوفوا في وجه الطغاة والفاسدين منذ فجر التاريخ في مصر الفرعونية وبخاصة في تلك الفترة التي عُرفت بـ " الفترة الانتقالية الأولي"، والتي تُعَد من أهم فترات التحول في تاريخ المصريين، لما أدت إليه من تغيير في الأوضاع السياسية والاقتصادية في ذلك الوقت. ففي عصر الأسرة السادسة، جاء حُكام الأقاليم والكهنة " البطانة "، جاءوا بسلطاتهم الواسعة، ليَحِدوا من نفوذ الملك، ويقيموا نظاماً أشبه بالنُظمِ الإقطاعية في أوروبا - في عصورها الوسطى - فحادُوا عن الحق كثيراً، وطغوا بظلمهم، فهاج الشعب " الطيب، الصبُور" قام بأول ثورة عرفها التاريخ، مُعلناً رفضه وغضبه، ومُعبراً عن حقه ومطالبه.

والحقيقة أن ثورة طبقة " البروليتاريا " العاملة، ضد الطبقة الأرستقراطية "البرجوازية "، المالكة، قد قضت على كل مظاهر الظلم الاجتماعي في مجتمع تحول فيه الناس إلى سادة وعبيد، فكانت رداً عنيفاً وقوياً على الحاكم الظالم، لم يسلم منه هو أيضاً.

وقد اختلف المؤرخون في تحديد زمان " الثورة الاجتماعية الأولى " هذه، فمنهم من قال أنها كانت في عهد الملك " بيبي الثاني "، آخر ملوك الأسرة السادسة، إلا أن الثابت - والأهم من ذلك - أنها كانت ثورة قضت على كافة مظاهر الظلم التي كانت قد تفشت في المجتمع، وأن الحاكم - نفسه - لم يسلم من موجاتها وآثارها كما أسلفنا، والحقيقة أن بقائه في الحكم لتلك الفترة الطويلة – والتي لم تُتح لمن سبقه، ولا حتى لمن خلفه، وكان قد بلغ خلالها من العمر مبلغا ربما كانت دافعاً إضافياً لثورة الشعب ضده.

ستةٌ وتسعون عاماً قضاها الملك " بيبي الثاني " في الحكم، كانت كفيلة بإضعاف قبضته على مقاليد الأمور، ومهدت الطريق لمن أحاطوا به من حكام الأقاليم ليستقلوا ويستحوذوا على كل السُلطات في الدولة، فتحولوا إلى "آلهة "، يحكمون عبيداً. فصار العزيز ذليلاً، والوضيع عزيزاً، فعَمّ الخراب، وساد الاضطراب، وحلت بالناسِ الخطوب، وأشقتهم المِحَن، هكذا حكى " الحكيم " أيبوور في برديته، حين دخل على الملك العجوز واصفاً حال البلادِ وبؤس العبادِ، ومتحدثاً عن أسباب الثورة و ما أدت إليه بقوله :

* إن أحوال البلاد قد تبدلت وتغيرت وخرج الجرذان من جحورهم ليتطاولوا علي الأسود التي باتت ضعيفة .

مُرجِعاً السبب الرئيسي في الثورة إلى طول طول بقاء الملك في الحكم، و الذي كان قد تولى العرش صبياً صغيراً وظل يحكم لأكثر من ستةٍ وتسعين عاماً، تاركاً البلاد في أيدي معاونيه وقوادِه فعاثوا في الأرض فساداً، واستغلوا ضعفه طفلاً، إلى أن صار شيخاً طاعناً في السن. وتجرأت البلاد المُحيطة بمصر علي هيبة الدولة بعدما كانت تدين لها بالولاء والطاعة، وصارت بعثات التجارة إلى البلاد تُنهب، ويقتل أفرادها، وآلت البلاد في النهاية إلي ثورة عارمة، حتى الأهرامات ومقابر الملوك الفراعنة بما فيها من كنوز لم تسلم هي الأخرى من النهب والسلبِ. وانتشرت المجاعة وعَزّ رغيف الخبز، وتحول اللصوص وقطاع الطرق إلي أثرياء لكنهم صاروا لايجدون مايسرقونه، وعمت المجاعة فتغيرت أخلاق المصريين، وصار الأخ يشُك في أخيه ويحتاط منه، وأغلقت البيوت أبوابها علي أصحابها حتى الشوارع خلت من المارة، ولم تجد الأرض من يزرعها. فمن استفاد بهذا الوضع؟ بالطبع هم أتباع الإله "ست" إله الشر. فكان هذا هو عصرهم الذهبي لكي يدمروا الشرفاء!. ففي مصر القديمة كان واجب الفرعون " الملك" نحو شعبه أن يحكم بين الناس بالعدل والحق والنظام، أي أن يحكم وفق تقاليد الـ " ماعت "، رمز الحق وإله العدل والنظام، فكان وزير الدولة يتلقي تعليماته مباشرة من الملك الذي كان يحث فيها علي نشر مباديء الحق والعدل والنظام بين الشعب.

ثانياً: من الذى قام بالثورة ؟

من الاسئلة المُلحة التى جالت بخاطري - كاختصاصي بالاجتماع والتنمية وليس بالتاريخ -، هو كيف تقوم الثورات؟ وما هي آلياتها ؟، ثم ما هي سِمات من يقومون بها؟، وما هي الأدوات والوسائل التي يستخدمها الثوار للحشد والتعبئة وتوحيد الصف الشعبي وتنظيمه ليصبح أداة ضغط فاعلة؟، يضعف أمامها الحاكم بجبروته وألوهيته "الوهمية"، وسلطته الجبارة وجيوشه الجرارة، ورغم قلة النصوص التاريخية التى أجابت على هذه الأسئلة. الا أننا وجدنا وصفاً مقتضباً للثورة وآلياتها فى برديات "الحكيم" أيبوور أيضاً، الذى وصف ذلك قائلاً:

* لقد ارتفعت ألسنة اللهب وامتدت نيرانها، وستكون حرباً علي أعداء البلاد، فانطلق الحراس للنهب، وأبي الحمَّالون أن يحملوا أحمالهم، وتسلح صيادو الطيور بأسلحتهم، وحدث شئ قذر في عهد حورس، حيث هوجمت الإدارات العامة ونُهبت قوائمها، كما زيح الموظفون وسُلِبت دفاترهم، ولم تعد لكبار الموظفين كلمة مسموعة، ثم يقول: كيف امتلأت البلاد بالغابات حتى أن الرجل صار يذهب إلي الحرث حاملاً درعاً بدلاً من فأسه، و صار اللصوص يختبئون بين الأشجار حتى إذا جاء المسافر ليلاً انقضوا عليه وسرقوا ما معه .. فيظل يُضرب بالعصا حتى تخمد أنفاسه ثم يُذبح ظلماً، إن الرجل ليُذبح بجوار أخيه فيتركه ويهرب .

و يتحدث "الحكيم" أيبوور أيضاً إلي الملك مُشيراً إلى الغوغائية والفوضى في طيات كلامه إلى إهدار مقدرات البلاد واصفاً تدهور الحال فيقول : كيف شارك في الثورة حتى أصحاب أهدأ الحرف كبائع الحلوى وصانعوا الجعّة؟ لقد استمرت الثورة حتى جعلت الأرض تدور كعجلة صانع الفخار، إن الدولة في طريقها إلي أن تصب الماء لغيرها،ومن أضاع الماء يكون قد شلّ الذراع الفتيّة وقيدها في الأغلال .

إن هذا الرصد البديع للثورة وما آلت إليه الدولة، وتبيان أن الظلم قد مسّ كل شئ، فانتفض الكل ضد الطغاة، حتى مياة النيل قد أُهدِرت، فأشار إلي الماء وضياعه، ووصفه بتقييد السواعد في الأغلال، حقاً ما أجمل هذا الوصفِ البديع. وما أروع المثقفين عندما يكونون - بحقٍ - ضمير الشعب، يسجلون التاريخ بموضوعية بعيداً عن المغالاة والنفاق، وخُلواً من الزيف والمزايدات.

ولم يتوقف أيبوور"الحكيم" فى وصفه لثورة " الفرعون الجائع " عند هذا الحد، وإنما أخذ يجيب على تساؤلاتنا الحالية أيضاً، هل حالات الانفلات الأمنى والأخلاقى التى تصاحب الثورات هي عرضٌ زائلٌ أم تجذُرٌ متأصلٌ في النفس البشرية؟ ثم يعود ليقول واصفاً حالة المجتمع المصري وقت الثورة قائلاً :

* لقد نبت الخراب في كل أرض، والدم صار في كل مكان وأصبحت لفائف دون أن يقترب منها إنسان، لقد نفدت الغلال في كل مكان، وتجرد القوم من الملابس والزيوت والعطور، وصار كل إنسان يقول لم يبق عندي شيء، وأصبح الناس يأكلون الحشائش ويبتلعونها بالماء وقد يأخذون الطعام من أفواه الخنازير، إن نيران الثورة وآثار الخراب لم ترحم أحداً، فتأثر بها النبلاء قبل الفقراء والأذكياء قبل الدُهماء، فخراب الأوطان لا ينجو من ويلاته أحد. وهنا يستطرد أيبور فى برديته قائلاً: كانت النبيلات يهربن بأطفالهن وُيلقين بهم فى النهر؛ خشية الموت، وأولاد الحكام يفترشون الطرقات ويتسولون فى الأحياء، إن النبيلات يجمعن بقايا الحصاد، فمن كان لا يملك حقه من القمح، بات يملك مخازن الغلال، والذي لم يكن يملك ثوراً صار يملك قطيعاً، فتأمل .

وفى عبارات حكيمة بليغة، يستطرد أيبوور متحدثاً عن مغارم ثورة جياع الفراعنة وكيف أنها قوضَت أركان الدولة، فيقول:

* أصبح الأجانب مصريين، وصار المصريون أغراباً، وطمع الأسيويون في مصر، وسقطت أركان التجارة التي تُنعش الاقتصاد، وتخلي المصريون بعد الثورة عن كثيرٍ من مشاهد حياتهم، كالاهتمام بالمدافن والجبانات، فانتشرت الحُفر الأثرية، وتعاونت السلطة مع مجموعة من المُتعصبين والمُحرضين الشعبيين وقادة الأقاليم، ولم تُعرف المقابر الجماعية إلا فى تلك الحقبة التاريخية البائسة، كما أن مهنة الحانوتية لم تظهر إلا في ذلك الوقت؛ لكثرة من ماتوا جوعاً.

وتشير المصادر التاريخية التي حكت عن تلك الفترة، إلى إنهيار نظام الحكم المركزي، حيث عجزت الدولة عن حفظ الأمن، ونُهبَت الأقاليم بُقطاع الطرق وبدو الصحراء واللصوص. ودُهِست سجلات الدواوين والقوانين تحت الأقدام، وقبل ذلك كله قُهرَأهل الصناعات والفلاحين، واستُغِلَ عرقهم وحاول البعض الوثوب علي كرسى الملك دون شرعية. إلي هذا الحد وصل الفساد والخراب والدمار فى عصر المستبد " بيبى الثاني "؟.

كما أن بعض المصادر التاريخية الأخرى تشير إلى أن تلك الثورة ربما تكون قد قامت في عهد هذه الملكة "نيتوكريس"، ومنها بردية " تورين – Turin Papyrus "، التي ترجع إلى عصر الملك رمسيس الثاني، وقد كُتِبت هذه البردية حوالي في العام ١١٦٠ ق.م على ورق بردي بالخط الهيراطيقي، وقُسِمَت البردية إلى مجموعات نسبت كل مجموعة منها إلى العاصمة التي استقرت فيها، وتعتبر هذه البردية من المصادر المباشرة والمهمة للبحث في تاريخ الحضارة المصرية،فقد اشارت إلى أكثر من ثلاث مئةٍ من الملوك والفترات التي تولوا خلالها الحكم، وأهم أعمالهم، بداية من عصر ما قبل الأسُرات حتى عصرالأسرة الثامنة، وهذه البردية معروضة بمتحف تورين بإيطاليا .

والملكة " نيتو كريس" هذه - كما يذكر المؤرخون - كانت الابنه الكبرى للملك "بيبى الأول"، وقد تولت الحكم بعد وفاته، ويرى آخرون أنها كانت أخت آخر ملوك هذه الاسرة والذى مات مقتولاً، ويذكر"هيرودوت" أن رجال الدولة الذين اغتالوا شقيق هذه الملكة أجلسوها على عرش مصر على غير رغبتها، فقد كان قد ساءها اغتيال أخيها ولكنها قبلت الحكم على أمل أن تنتقم ممن ارتكبوا هذه الجريمة فى حق أخيها، ولذلك، فقد أمرت بإنشاء قصرٍ عظيمٍ على أن يكون في أسفله بعض الحجرات المتصله بسراديب مغلقه تنتهى بنهر النيل، ثم دعت رجال بلاطها الذين كانوا قد دبروا مؤامرة اغتيال شقيقها إلى مأدبة بالقصر احتفالاً بالانتهاء من بنائه، ولما اكتمل الجَمع، أغلقت ابواب القصر وفتحت مياه النيل على حجراته فأغرقت المتآمرين جميعهم بحيث لم ينجُ منهم أحد .وقد وصف "هيرودوت" هذه الملكة بأنها من أنبل وأعظم حكام عصرها، كما وصفها المؤرخ المصرى "مانيتون" بأنها كانت أجمل إمرأة فى زمانها.

والخلاصة، أنه ليس في الإمكان تحديد زمان هذا الحدث الفاعل على وجه الدقة، ولكن الحقيقة المؤكدة، هي أنه قد وقع، خصوصاً وأن ما ورد في بردية أيبور لا يشير إلي مكان ولا إلي زمان الثورة الشعبية. على أية حالٍ، وبصرف النظر عن الزمان والمكان، فإن أهداف الثورات غالباً ما تكون متشابهة، ويظل الفقر والاحساس بالظلم وغياب العدل هي الدوافع الأساسية وراء كل تظاهرٍ أو تمردٍ، وسبباً رئيساً لكل غضبٍ أوثورة.

ومن هنا تصبح أهداف الثورات الشعبية، مهما اختلف زمانها ومكانها - بشكل عام - هي القضاء علي الظلم، والفوضى، وفساد الحكم، وإهدار مصالح الشعب. وقديماً قال الشاعر العباسي ابن زريق البغدادي (المتوفي سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩ م) :

أعطيـــتُ مُـــلْكاً فَلم أحْســـنْ سيـــاسته

وكُـــلُّ من لا يَسُـــوسُ المـــُلْكَ يَخـــْلعُهُ

وصدق أيضاً أبو العلاء المعري، أحد أهم شعراء العصر العباسي أيضاً (المتوفي سنة ٤٤٩هـ / ١٠٥٧ م) حين وصف أمثال هؤلاء الحكام المُتجبرين ببيتِ شعرٍ يقول فيه:

وأرَى مُلُـوكاً لا تَحـــُوطُ رَعِيـّـــةٍ

فَعَـــلامَ تُؤخْـــذُ جِـــزيـَـــةٍ ومُكُـــوسُ

وعموماً فإن بردية أيبوور لم تترك المشهد قاتماً، وإنما ألقت ضوءاً يبعث على الأمل، فقد تنبأ أيبوور بقدوم ملكٍ يُخلص مصر من أزمتها، ويقيلها من عَثرتِها، فقال: سيأتي من أهل الجنوب ملكٌ، مولودٌ لامرأة نوبية، اسمه "امينى" أو" مينا"، سيكون له شأنٌ عظيم ومجدٌ كبير، وسيلبس التاج الأحمر ويُوحد القطرين.

إلا أن الحكيم أيبوور لم يكن الوحيد الذي بشر بذلك، فبحسب المصادر التاريخية، فإن بردية ثانية كان قد كتبها الكاهن " نفرتي"، في عهد الأسرة الثانية عشر بهدف الدعاية السياسية للملك "أمنمحات " الأول، أول ملوك هذه الأسرة، أرجع كاتبها الأحداث إلى عهد الملك "سنفرو"، الذى كان قد طلب من الكاهن والحكيم " نفرتى" أن يتنبأ له ببعض الأحداث المستقبلية، فحدثه عن حالة من الذعر والفوضى ستسود البلاد، ثم بشَّره بأن هذه الحالة لن تنتهى إلا على يد ملك يُدعى "أمينى" أو "أمنمحات الأول".

ثالثاً: لماذا ثار الفراعنة؟

ورغم أننا فى السطور السابقة كنا قد أشرنا سريعاً للوثائق الى سجلت أحداث الثورة، إلا أن التساؤل عن أسباب الثورة لايزال قائماً، ورغم ان المُعطيات التاريخية قد تباينت واختلفت فى وصفها لتلك الأسباب والمبررات لثورة الفراعنة، إلا أننا تمكنا من خلال دراسة أحاديث أيبوور "الحكيم" أن نستخلص الأسباب التي أدت إلي انتفاضة الجياع والتى نعرضها كما يلى:

(١)زواج السلطة والمال ونظرية الملك الإله .

يذكر التاريخ أن مصر إبان حكم الملك بيبى الثانى تحولت إلى قلة تملك كل شئ (رفاهية – سلطة) زواج المال والسلطة وأغلبية تكايد الفقر والجوع وتحرم من نتاج يدها وتعاني كل أنواع الاغتراب وسطوة الدين الذي يجعله الطغاة (أفيون الشعب) دائما نظرية الملك الإله،التي شكلها منذ البداية الملك الإله حور.ومن الحقائق المؤكدة التي لا تقبل الشك ولا الجدال أن مصر تعتمد علي النيل أي ذات طبيعة فيضية في القديم ولا تعتمد عل المطر.لذلك وجب على الحاكم فى كل زمان التمكن من ضبط النهر وضبط الناس وإلا سيطر علي الحقول قانون الغاب وتحول توزيع المياه إلي عملية دموية.

وهنا تأتى أهمية التنظيم الاجتماعي لأحوال البشر، على أن يصبح التنظيم الاجتماعي ذاته شرطا أساسياً للتعايش، ولابد من خضوع الجميع لسلطة أعلي حاكمة عادلة توزع المياه وتنشر العدل بين الجميع ويصبح وسيطا بين الإنسان والبيئة .وبهذا يصبح الفرعون ضلعا أساسياً فى مثلث الإنتاج مضافاً إلي ضلعى النيل والشمس؛ ولهذا لم يكن مستغرباً أن يعبد المصريون الحاكم ويؤلهوه .

انظر إلي أنشودة النيل مثلاً :

يا من خرجت من الأرض وأقبلت تغذو مصر

أن من يروي البراري هو الذي خلفه رع ليعزو الماشية جميعا

هو الذي يسقي الصحاري إن بعدت عن المياه

إنه حبيب جب مدير آلهة الحصاد

إنه سيد الأسماك وصانع الشعير وخالق القمح

إذا هبط كانت الأرض كلها في فزع وحزن الكبير والصغير

وإذا ارتفع كانت الأرض في احتفال وكل امرئ في سرور.

ونلاحظ من ذلك أن الشعب المصري عبد كل من قدم له غذائه (الشمس – النيل – الملك الفرعون). وهذا يؤكد وجود الملك الإله الذي له علاقة بالشعب والعلاقة الاقتصادية بين الملك والشعب سبقت العلاقة الدينية .ومن أبرز الأدلة علي ذلك ثورة الشعب التي عرفت بالثورة الاجتماعية الأولي التي كان من أهم دوافعها أن المصري لم يجد

طعامه وذلك لظروف عدة،من أهمها النيل الذي هبط ماؤه إلي الجفاف (أعطني أرضك وجهدك –أعطيك أنا مياهي) وربما بسبب سطوة حكام الأقاليم.

وبذلك نري أن العقد الاجتماعي المبرم بين الشعب والحكام تم نقضه من قبل الحاكم فثار الشعب عليه دون مراعاة لقدسية الحاكم الإله.وربما يكون هذا الرأي صحيح أو مجانب للصواب ولكن مما لا شك فيه أن الجانب الاقتصادي من ابرز أسباب الثورة علي الحكام لأنه مشعر بالعوز والمهانة وفقدان الآدمية.

(٢)ضعف الملكية وزيادة نفوذ حكام الأقاليم:

فى أواخر عصر بيبى الثاني، استقل الحكام في الأقاليم بأقاليمهم وأصبحوا كالملوك ووقعت البلاد في انقسام سياسي وإضراب اجتماعي لم تشهده البلاد منذ اتحادها.ولم يكن يعرف (بيبي الثاني) من أمر البلاد إلا ما ينقل إليه من بطانة السوء من كذب وزور ونزل بالناس محن وخطوب وإفلاس وعز الذليل وذل العزيز. وهذا يوضح أولا سيطرة الملوك علي مقدرات الدولة فغلبت قوتهم قوة حكام الأقاليم القائمين علي جمع الضرائب لصالح الخزانة العامة.

ويعد ضعف السلطة المركزية استقلال حكام الأقاليم عن الفرعون، وبلغ الاستقلال حدته فى عهد الملك (ببي الثاني) الذي استمر علي العرش قرابة ٩٤ عاما.وهي أطول فترات الحكم لحاكم في تاريخ الدول، وأخذت الدولة نظام اللامركزية فى الحكم، كما كان قبل الاتحاد(توحيد القطرين الشمال والجنوب على يد مينا) وقام المصريون بالتمرد ضد ملكهم ولم يعد الحاكم ذلك الإله الذي يرجو رعاياه رضاه .. ولا بالقادر الواهب للرحمة في الدنيا والآخرة....

ولذلك قبلت فكرة المساواة نظريا .. وأعتنق المصريون عقيدة تحالف العقيدة ..وأصبحت الأوزيرية هي التعبير عن التمرد والثورة الشعبية،ولسان حاله والناطق الرسمي لهذا التمرد، وضعف الحكام الفراعين.ولم يعد ممكنا إعادة قوتهم وملكهم.ومما زاد الحكم الملكي ضعفا كثرة الهبات والعطايا الملكية على الحاشية وحكام الأقاليم.. ومما أشبه الليلة بالبارحة ذكرتني هذه الواقعة بما حدث فى عهد مبارك، حيث الأموال المنهوبة في كل بنوك العالم والعطايا الجائرة وإهدار المال العام.

وهنا نري أن الحاكم يقدم العطايا والهبات لحاكم الأقاليم بهدف شراء الولاء ومنحهم الأراضي للإنفاق علي المعابد الإلهية والخدمات الجنائزية،وقد حدث ذلك مع (وني) التي حدثتنا الوثائق التاريخية انه أهداه تابوتا من الحجر الجيري من طره وأهداه عظام التابوت والباب الوهمي ومائدة القرابين... ولا ننسى (زعو)أحد أمراء الصعيد الذى أهداه الملك تابوتاً من الخشب وكثير من العطور ومائتي من أجود أنواع الكفاف؛ مما تسبب بشكل كبير فى نفاذ خزانة الدولة .. الذى تجلى فى جملة من المظاهر أهمها: شراء ولاء حكام الأقاليم . و احتفاظ حكام الأقاليم بأموال الضرائب.والضرائب في زمن الدولة القديمة تجني مما تنبت الأرض ومن الماشية والذهب.

ولكن من الواضح هنا أن طرق الجباية قد اختلفت، فغير القادرين يعملون لسدادها أوقاتاً محددة بغير أجر،وأصحاب الضياع يؤدونها مما يملكون، وقدرت علي الأقاليم حسب المساحة ووفاء النيل؛ مما سهل الأمر على الحاكم، وظلت العلاقة قائمة على الأمر والطاعة بين سطوة الملكية والاحتفاظ بهيبة الألوهية.

وهنا كان لزاماً علينا أن نمعن النظر فيما ورد من نصوص، كانت تعبر ما كان يحدث، وما كان يعانيه الشعب إبان عصر (منقر رع)حيث نشاهد الفلاح الفصيح يجابه الملك، ويصف حال الشعب فيقول:

"إن ابن مرو أعمي عما يري .. أصم عما يسمع .. يا مدينة بغير عمد .. وجماعة بغير رئيس .. ويا سفينة بغير ربان – وفريقا بغير قائد .. انظر: انك لص، حاكم بجهل الفلاحين .. ورئيس مقاطعة يجب عليه القضاء علي النهب .. ولكنك تشبههم .. إن لم تكن نموذجاً لهم...."

(٣)الهبات وتملك الأراضي الزراعية:

كانت الهبات تمثل أحدى صور الفساد فى عصر الملك بيبى الثانى .. فمن خلالها تمكن الملك من شراء ولاء وذمم حكام الأقاليم وبعض الأراضي للإنفاق منها علي المعابد والخدمات الجنائزية.قطعتى الأرض التى وهبها الكاهن (وسر كاف) إلى (نكا عنج) والتى كان قد وهبها الملك منقر رع لكاهن (حتحور) (غنوكا) للإنفاق على عبادة حتحور وبعض الخدمات الجنائزية .

وكان الملوك يهبون القرى ليس من أجل الاستمتاع بحياتهم الدنيوية .. بقدر حرسهم على رعاية معابدهم وتفخيم قصورهم الأخروية، حتى صارت القرى إرثا لأهل الميت.. وبناء على ما تقدم فإن مصر لم تعرف معنى الملكية ولا حدودها إلا فى ذلك العصر بعد أن كانت مصر كلها ملكاً للملك أو الحاكم الإله .. وكأن الفساد كان مقروناً بالتملك أو الملكية .. خاصة وأن الرغبة فى التملك غريزة إنسانية كسائر الغرائز .. كرغبة الرجل أو ألأنثى فى تملك الأخر .. وإذا ما حُجِمَت هذه الغريزة صار العالم الإنساني بمثابة غابة يأكل بعضه بعضاً.. من أجل اشباع رغبته فى التملك .

ويذكر المؤرخون الأراضي التى منحها (بيبي الثاني) لـــ (سابني) حاكم أسوان.. حيث منحة ثلاثين أوروراً من الأرض في شمال مصر وجنوبها؛ مكافئة لولائه الملكى، والأورور يهو ما يعادل ثلثي فدان تقريباً.

ولكم أرهقت المنح والهبات خزانة الدولة وأضعفتها، وساهمت فى تضخم .ثروات الأمراء بالميراث؛ مما تسبب فى استقلال حكام الأقاليم عن السلطة المركزية للدولة .يقول الحكيم (ايبوور) .(حقا لماذا لا تدفع جزيرة أسوان (اليفانتين)و(بإقليم أبيدوس) الضرائب، إذا كانت الضياع فى حاجة إلي الفاكهة والقمح وكل أنواع التجارة .. فما فائدة الخزانة دون دخل ..؟

ورغم حرص النظام الملكي على جمع الضرائب من العامة .. بيد أن هذه الضرائب كان من السهولة بمكان سرقتها والسطو عليها، على أيدي أي من موظفي الدولة أو القائمين على جبايتها دون رادع أو رقيب ..؛ الأمر الذى أدى إلى إفلاس الدولة وإفراغ خزانتها ومحدودية وربما معدومية الخدمات التي تقدمها للشعب مقابل الضرائب التى تجمعها منه .. فلم يعد فى قصر الملك من خدمات تستحق أن يجمع لها الضرائب من الشعب ..

لك الله يا مصر .. فلكم تباهي حكام الأقاليم بمنجزاتهم مثل (عنج تيفي)حاكم (نخن)البصيلية (وايتي)حاكم الجبلين .. اللذان تفاخر كل منهما بكرمه.. فعدد من أطعمهم وكساهم .. حتى أنه لم يكن في إقليمهما وقت المجاعة جائع ولا عار .. وأمام هذا الشكل السلطوي الجامح والنفوذ القوي لحكام الأقاليم مقابل ضعف الحاكم؛الذى لم يكن أمامه سوى الانصياع لمطالبهم؛ ورث الأبناء إقليم الآباء، ووزعت ثروات البلاد بين الأسر القوية.وحاولوا كسب الكهنة فأسرفوا في بناء المعابد لهم، ووقف الأوقاف عليها وكلما تمددت كف الحاكم قوي نفوذهم .

(٤)سطوة رجال الدين وبناء المقابر الملكية:

ومن دواعي التمرد وأسبابه أعباء البنايات التي هددت الاقتصاد القومي تحت وطأة السوط السلطوي الديني،والدين كان وما زال أكبر المؤثرات في حياه المصريين وهو موجه الفكر ومرشد طرق الإصلاح لهم إذا لم يسء استخدامه لأنه كذلك (أفيونه الشعوب) لا يزال الهرم الأكبر يخلد ذكري صاحبة ولنا أن نتصور حجم ما انفق علية إذا عرفنا حجمه وطريقة بناءه،فقد بني (٤٢٠٠م) وكان ارتفاعه (١٤٦م)أنقصها عوامل التعرية إلي (١٣٩م)وقيل إنه تم جلب قرابة مليون وثلاثمائة ألف كتلة حجرية وقد تراوح وزن الواحدة منها إلي ما بين (٢٥٠٠كجم – ٣٠٠٠كجم) وقطعت من محاجر هضبة الجيزة التي شيد الهرم فوقها، وكساء الهرم قطع من محاجر طره والذي أكلته عوامل التعرية إلا قليلاً.

ويدل ما سبق علي حجم التكاليف وإهدار القوة البشرية وضياع الوقت حيث يقال أن بناء الهرم استغرق قرابة عشرين عاماً وأهدرت طاقات مائة ألف عامل كانوا يستبدلون كل ثلاثة أشهر.وليس ذلك فقط ولكن الطريق الذي شيد لتنقل علية الأحجار استغرق عشر سنوات ولك أن تتخيل عزيزي القارئ حجم ما فيه من إهدار ومعاناة.

كل ذلك في سبيل هرم واحد،فما بالك وهي الدولة القديمة، ولقد بلغ عدد ما بني في مصر أكثر من سبعين هرما.ومما يجدر ذكره أن الملك (بيبي) رغم سوء الأحوال في فترة حكمة بني أربعة أهرامات له ولزوجاته (نيت – ايبوت–اوحنين).فأي عبء ألقي علي خزانة الدولة وأي إهدار لطاقات البشر وتفويت فرصة العيش السعيد عليهم.

كما شكل الإنفاق على مقابر الملوط وأضرحتهم عبئاً إضافياً على خزانة الدولة .. إذا أن الهبات إلى خُصصت للإنفاق الدائم علي قبور الملوك والملكات والنبلاء فإنها تعني إقصاء مساحات شاسعة من الأراضي ارض وموارد الدولة السياسية عن حظيرة الاقتصاد المصرى. ومن الأمثلة الدامغة على الإسراف فى موارد الدولة أنه تم وقف خراج اثنتي عشرة قرية علي قبر (منقا رع) ابن (خفرع)

ويحضرني في هذا السياق ذكر العبارة التى كانت تكتب على مقابر الملوك والنبلاء :(أيها الأحياء فوق الأرض.. يا من تمرون بهذا الضريح ... هل تحبون أن يرضي عنكم المليك ..؟ وأن تكونوا من المقربين عند الإله العظيم ... قدموا ألف رغيف وألف قدر من جعة للمقرب)ولعل هذا الدعاء يوضح مدى ابتزاز اللقمة الباقية من فم الأحياء.

(٥)تدهور التجارة:

مما لا شك فيه أن الموارد التي تجلبها التجارة الخارجية من أهم أسباب انتعاش الاقتصاد .وكان لمصر علاقات تجارية بغرب أسيا وجزر البحر الأبيض المتوسط والجزر الأسيوية وليبيا وبلاد بونت؛ وتوقفت التجارة نتيجة للضعف الذي أصاب مصر بداء الشيخوخة، نتيجة شيخوخة (بيبي الثاني) وتجرأت بعض الحضارات علي الانفصال كالنوبة وتجرأت البلاد علي تهديد حدود مصر مثل (العناصر المأمورية) وانفصال الدلتا – كل ذلك أدي إلي تدهور التجارة الخارجية.

(٦)تفشى المجاعات:

أن من أهم الأسباب التى عجلت بقيام الثورة وزادت من الاحتقان الشعبي واختناقه من المسالك الملكية في الحكم هو نقص مياه النهر والانقسام السياسي وتفتيت الكتلة الزراعية المعتمدة علي الري،بالإضافة إلى كون نقص

مياه النيل أو عدم انتظام الري عاملاً أساسيا للمجاعة في الفترة الانتقالية الثانية.ويبادر حكام الأقاليم بالتباهي بحماية أقاليمهم،حتى الفلاح في بيته،والأمثلة علي ذلك كثير.يقول (عنج- تيفي-حاكم نخن البصيلية : "ماتت مصر العليا من المجاعة حتى ليأكل الرجل بنيه.. ولم يمت أحد جوعا بإقليمكم".

وأما (ايتي)حاكم الجبلين يسجل في لوحاته فيقول: "قد كنت أجلب الطعام في سنوات الجدب .. وقد بلغ عدد الجياع ٤٠٠ رجل .. ولم اغتصب ابنه رجل .. ولم استول علي حقه .. وجعلت كل عشرة قطعان من الغنم تحت إدارة الرجل للقطيع ...وربيت قطيعين من البقر وقطيعا من الحمير ... وأكثرت من تربية البهائم الصغيرة من كل الأنواع.... وبنيت ثلاثين سفينة وأعقبتها بثلاثين أخري ولما اكتفت (الجبلين) أرسلت القمح إلي المناطق المجاورة بحيث اتسع حجم المدد لدرجة أنه لم يعد هناك احد فوق أو تحت (الجبلين) بحاجة إلي مساعدة الأقاليم الأخرى ".

وكذلك تفاخر حاكم أسيوط (خيتي الأول) فقال:" كان لدي حبوباً كثيرة؛ وعندما دعت الحاجة إليها وزعتها علي المدينة ...وسمحت لكل مواطن أن يحمل الحبوب لنفسه وزوجته .. وكذلك فعلت مع الأرملة وابنها .. وأكملت كل نقص لم يكن مستوفيا من عهد أبائي".

كذلك ما ورد فى حديث الفلاحين لأسرته (حقا – نخت) حيث قال: "

مصر كلها في مجاعة وانتم لستم جياعا عندما رحلت للجنوب رتبت لكم أمر المؤن جيدا جاء الفيضان الآن (وتقع جدا)انظروا التموين يجدده حال الفيضان،اصبروا أيها الناس انظروا أنني حتى اليوم بعيد عن داري لأطعمكم" ثم يتابع فيقول:

" نصف حياة خير من الموت، انظروا بدؤها يأكلون البشر هنا، إن المؤن التى أرسلت إليكم ..لا يحصل عليها غيركم .. فالتزموا السلوك الحسن وقووا قلوبكم واصبروا حتى النصر."

- ***أحداث الثورة ومراحل قيامها:***

مرت ثورة الجياع فى عصر الفراعنة بعدة مرحل .. أمكن رصدها فيما يلى:

الفترة الانتقالية الأولي :

أطلق المؤرخون على هذه الفترة عصر اللامركزية (عصر الفوضى الأولي) الذي امتد من ٢١٨١ إلي ٢٠٤٠قبل الميلاد.. ومثلث الأسرة السابعة والثامنة أكثر عصور اللامركزية إظلام.. ولا يزال والمؤرخون مختلفين في تحديد زمنها، والراجح أن الأسرة السابعة قد استمرت ثماني سنوات، بيمنا استمرت الثامنة ثلاثة عشر عاما.. وأول ملوك الأسرة الثامنة (نفر كارع الثاني)وعلي أي حال لقد صورت برديتي (ايبور) و (نفرتي) حالة البلاد بعد انهيار الأسرة السادسة .

ولقد أصاب الخلط توائم أسماء الملوك بتاريخ (مانيوتي) ويصعب ذكر أسماء ملوك الأسر.وعلي الأرجح أن ملوك الأسرة السابعة هم (نثر-كاد-رع)، (من-كا-رع)، (نفر-كا-رع)، (نفر-كا-رع-ني)، (جد-كا-رع-شماي)، (نفر-كا-رع-حندو)، (مر-ن-صور)، (سنفر-كا) ويقال أنهم بلغوا سبعين ملكا وحكموا سبعين يوما وهذا نتاج خلط الأسر في هذه الفترة وأسماء الملوك.

ومن ملوك الأسرة الثامنة الذين تمسكوا بالتقاليد وحكموا لفترات صغيرة وضعفت قبضتهم علي البلاد. فعادت إعفاءات معابد الآلهة مثل معبد الإله (مين) في عهد (واج-كار-ع)،(نفر-رع-كاو-صور)وهبات حاكم (فقط) وفي نهاية عصر الأسرة الثامنة أنتج الضعف تقسيم البلاد إلي: الأسيويون في الشمال)،(والحكم في إهناسيا) (وحكام طيبة).

الأسرة التاسعة ونقل مركزية الحكم :

فى ظل هذه الفوضى العارمة التي عمت البلاد تمكن الملك(خيتي) حاكم الإقليم العشرين في صعيد مصر من تأسيس الأسرة التاسعة.. بعد أن اتخذ من اهناسيا عاصمة له، ونقل مركز الحكم من منف؛ ومماسا عده علي ذلك أن اهناسيا التي تقع علي بعد ٥٥ ميل من جنوب منف كانت عاصمة ملوك الوجه القبلي قبل توحيد البلاد، كما أنها من الأماكن المقدسة؛ حيث ارتبطت بآلهة (ناسر ع اون) واتخذ (خيتي)لنفسه ألقاب مثل (حبيب ارض الأرضيين)و(حبيب قلب رع) .

ويقول عنه مانيتون (انه كان جبارا عنيفا يفعل الشر.. مخبولا قاسيا ذا فراسة.. في نهاية الأمر كان رمزه التمساح ح..وهو الشخصية الأبرز في تاريخ هذه الأسرة..ولم يكن يسيراً التعرف علي غيره لضعف قبضة أيديهم علي الحكم واختلاط أسمائهم.

الأسرة العشرة امتداد التاسعة:

أكدت بردية (نورين) أن ملوك اهناسيا كان يمثلون أسرة واحدة، تكونت من ١٨ ملكا ..وعلي الرغم من ذلك نجد في تاريخ (مانيتون) أنه انهي الأسرة التاسعة ليبدأ العاشرة التي من ملوكها (مري حتحور)،(نفر-كاو-رع)

حصاد الثورة وثمار التمرد:

رغم ما جناه المصريون من مخاطر وتضحيات جراء ثورتهم الاجتماعية الخالدة، التي استهدفت أمن الإنسان المصري وحقه فى العيش الكرم . فكما ذاق المصريون فى عهد ملكيهم المُغَيب "بيبى الثاني" ويلات من سحل الكرامة وذل العبودية .. وتدنى لقمة العيش تحت وطأة حاكم غافل قد شاخ على كرسي الإلوهية الضالة، تجرع المصريون إبان الثورة كؤوساً من مرارة الإحساس بغيبة الأمن وأصبح حق الإنسان فى البقاء على قيد الحياة محض وجهة نظر تقررها المصلحة ويحكمها الأقوى والأكثر بلطجة،، إذ أصبح الكريم ذليلاً وصار الذليل سيداً وبين هذا وذاك تقوضت أركان الدولة وسقط نظام الحكم..

ورغم كل هذه المعاناة الإنسانية المريرة كان لثورة الكرامة حصادها الايجابي، الذي ربما لم يشهده صانعو الثورة وضحاياها .. بل شهدها جيل جديد نبت على دماء هؤلاء الفوارس الذي تجشموا عناء التجربة وشربوا كؤوس المخاطرة.. جيل جديد نبت ليعيش فى مجتمع مغاير.. يقدس قيمة الفرد وليس الحاكم.. مجتمع يعظم المسئولية الراعي والرعية .. مجتمع تحكمه المساواة المجردة أما المحاكم الإلوهية.. مجتمع جديد تغايرت فيه التشكيلة الطبقية للمجتمع الفرعوني .. فلم يعد المجتمع ينقسم إلى آلهة وعبيد .. وأسياد وأفنان .. ولم تعد العزة فقط للحاكم الإله.. بل صارت العزة للجميع ... وهنا أحرى بنا أن نلخص ما أفضت إليه تلك الثورة من نتائج فيما يلى:

١)المساواة :

يعد تطبيق مبدأ المساواة فى الحقوق والواجبات أهم ما أسفرت عنه ثورة الجياع إبان ذلك العصر الملكي البائد .. إذ تمكن المصريون –نظرياً- أن يقفوا على قدم المساواة أمام المحاكم الإلهية، ليثبت كل فرد حقه في الخلود،فزاد اعتزاز المصري بكرامته،وأصبح لديه وعى بحقوقه وواجباته .. وسقطت الهالة المقدسة للحكام .. وبات المجد مقصوراً على استقامة الفرد وتقواه ...

٢) كسر هيمنة الطوطم الديني :

لم تكن من ثورة الجياع التي قام بها المصريون خلال الأسرة السادسة من العصر الفرعوني ثورة على حاكم فاسد يدعى "بيبى الثانى" فحسب .. بل كانت ثورة على نظام حكم مستبد، امتد فى المجتمع الفرعوني عبر حقبه المتتابعة .. نظام حكم قام على تأليه الحاكم، وتنزيهه عن الخطيئة.. وإقصاءه عن المساءلة ؛ ومن ثم فقد نجحت هذه الثورة وتلكم الثوار البواسل إذ أنزلوا الملك من كرسي الربوبية إلى مقاعد البشر.. فصار الملك في نظر رعاياه بشراً يخطئ ويصيب ويلقى عليه اللوم وتصح فيه المعاتبة.وقلد رأينا كاتب عاتب الحكيم "ايبور" الملك فى برديانه واتهمه بأنه المسئول الأول عن الفوضى التي تفشت فى البلاد... لو أنه قد أحاط نفسه ببطانة فاسدة كاذبة .. وتمنى له أن يتجرع من كؤوس البؤس الذي ذاقه الشعب على يديه.. وبيت القصيد فى ذلك، أن الثورة دفعت إلى التجرؤ على الطوطم الملكي الذي لم يكن يتجرأ أحد على نقاشه ..وإلقاء اللوم عليه على مدار العصور الفائتة التى سبقت ذلك الحاكم المستبد.

٣)تغيير التشكيلة الطبقية:

وكما قلنا آنفاً .. أن هذه الثورة قد أحدثت تغيير اً فجاً وربما جذرياً فى التركيبة أو التشكيلة الطبقية للمجتمع الفرعوني آنذاك .. إذ أوجدت الثورة طبقة جديدة لم تعهدها السوسيولوجيا الفرعونية من قبل.. حيث ظهرت الطبقة الوسطى التى تَمَثَّل أفرادها بالطبقة العليا .. وأطلقوا على أنفسهم (أهل البلد) .. وتغيرت ملامح السوسيولوجية فى المجتمع الفرعوني بعد ظهور طبقة العمال (البروليتاريا).. ومن ثم فقد انقسم المجتمع الفرعونى إلى ثلاثة طبقات هم الطبقة الارستقراطية-الطبقة البرجوازية- وطبقة العمال والفلاحين.وهذا التقسيم لم يكن موجوداً من قبل؛ مما أحداث حالة من التوازن الاجتماعي فى ذلك العصر.

وسجل بعض المؤرخين هذه الثورة وكتبوا عنها واختلفوا على تصنيفها .. هل ثورة سياسية ..؟ أم ثورة اجتماعية..؟ بيد أن (موريه) عرفها بأنها:(ثورة اجتماعية وسياسية استهدفت محاربة الأوضاع القائمة في عهد الأسرة السادسة) ... وقال (جون ويلسن):(أن هذه الثورة أنزلت الملك إلى منزلة البشر العاديين). وأن كنت أصر على تسميتها بالثورة الاجتماعية لما تحمله من معان وأهداف اجتماعية بالطراز الأول أو لكون دوافعها اجتماعية خالصة.. وإن كانت بعض نتائجها كانت سياسية...

ثانياً: الثورة العمالية الأولي:

فى عهد رمسيس الثالث قام عمال الجباية الملكية في دير المدينة بأول إضراب في التاريخ تحت شعار (نحن جوعي)، وطالبو بلقمة العيش والحق في الحياة الكريمة .. حيث ورث رمسيس الثالث عن أبيه (سن نخت) الهمة والنشاط ويعتبره (مانيتون)المؤسس الحقيقي للأسرة العشرين . ويري (مانيتون)أن رمسيس الثالث كان من أواخر الفراعين العظام أمثال (رمسيس الثاني).. حيث أنه اتخذ (رمسيس الثالث) رمسيس الثاني مثلاً له ..ولقب بألقابه..

وتكهن بكنباته .. واستطاع أن يدفع عن مصر الأخطار الجسيمة لحماية حدودها .. وسجل انتصاراته علي جدران معبدة (هابو) حيث جاء فى بردية (هاريس) نص ما سجله رمسيس على جداران معبده .. فكتب يقول:(لقد زرعت كل أراضي مصر بالأشجار والخضرة وتركت الناس يستمتعون بظلها لقد جعلت أي امرأة تسافر بأمان وبدون خوف إلي أي مكان تريده...)

وعلي الرغم من عظمة هذا الفرعون إلا أن هناك إشارات لضعف قبضته علي الحكم ولا سيما فى السنوات الأخيرة من حكمه نظراً لكثرة الحروب التى خاضها؛والتى أثرت بشكل كبير على خزانة الدولة ..ففى عهده جاء غزاة على مصر قادمين من جزر البحر الأبيض المتوسط كل من الثيكل (صقلية) والشكلش دنان والمشواش وغيرهم من أصحاب الجزر ومعهم الفلسطينيون للاستيطان في مصر وسوريا وكسر رمسيس الثالث شوكتهم. وفي العام الحادي عشر من حكمة أراد الليبيون الثأر لهزيمتهم ودخل رمسيس الثالث معهم فى حرب مطولة أنهكت الاقتصاد المصرى ..

ولم تكن الحروب وحدها هى من أنهكت الاقتصاد المصرى وإفلاس خزانة الدولة،، بل اتسم عهد رمسيس الثالث بكثرة البنايات التى تمت فى عهده .. فقد شهد عصر رمسيس الثالث نهضة معمارية كبيرة .. حيث أقام معبد (لإقامة شعائر أمون) علي غرار (الرمسيون) الذي بناه رمسيس الثاني وكذلك معبد الاحتفالات بأعياد أمون بجوار الكرنك ومعبد الإله (بتاح)، مما أثر كثيرا على خزانة الدولة إلي جوار الانتقال إلي عصر الحديد .. وهو عصر اقتصادي جديد.. ولم تكن مصر تملك مصادرة ومن ثم كان عليها شراءه مما أرهق ماليات البلاد وأضعفها.

وأضف إلى الحروب وكثرة البنايات المنح والهدايا التى كان ينفقها الملك على الأمراء ..والتي كانت تمثل عبئاً إضافيا ثقلا على خزانة الدولة .. حيث أشارت بردية (هاريس) أن مجموع ما امتلكه معبد أمون ١٠% من أراضي مصر وبه من الخدم (٨٦٤٨٦)خادما ومن الماشية (٤٢١٣٦٢) رأسا وأرغفة تقدم في الأعياد (٢٨٤٤٣٥٧) رغيفا ومن الطيور (١٢٦٢٥٠) ومن اسر الأجانب (٢٦٠٧) لأمون فما حال بقية المعابد .

وسارت الأحوال فى مصر فى عهد رمسيس الثالث عبارة عن كهنة يكدسون الأموال، وعمال جوعي ..ومخازن المعابد كانت مكدسة بالأموال .. ومنازل العمال باتت فارغة من الطعام .. وأعلن العمال جوعهم أمام كهنة المعابد ..وبخاصة معبد (مرمبتاح)، فأرسل لهم عمدة المدينة ما يسدوا به خلتهم.. فشكاة كبير كهنة أمون (أنه أخذ بدون وجه حق) من معبد رمسيس الثاني ..ووصف ما فعله العمدة بأنه (جريمة كبيرة).

ورغم ما تعرض له العمال من جور على الحقوق ؛ بيد أنهم كانوا يؤمنون بأن العمل الفرض والأجر حق .. فلم يؤثر حرمانهم من الأجور على جودة الأعمال التى كلفوا بالقيام بها .. ففي (دير المدينة) مدينة العمال التي كان يسكنها الفنانون والنحاتون والحجارون الذين عملوا في الأسرة التاسعة عشره والعشرين في خدمة الجبانة حيث القبور.نجد نموذجا صارخاً للعمل المتقن .. فنجد فى في الساحة السفلية للمقبرة تشاهد أقسى أنواع الصخور ..فهناك قرابة ٢٣٠ قدما عن طريق ممرات وسراديب تغطي جدرانها وصور تمثل الملك في حضرة الآلهة والمناظر الدينية الأخرى.. ويلتمع سقف المقبرة بصور للإله (نون) ونجوم السماء.

وعلي الرغم من ظني أن العمل كانت تدفع إليه روح التبرك والتقرب إلى الإله..إلا انه كان عملا شاقاً جداً ومهيناً للقوي،وأي عمل أكثر قسوة من ذلك ..وكانت أجورهم عبارة عن تلك الجرايات التي لا تكفى إلا لما يحمى فقط عيالهم من الجوع.

وعندما اشتدت وطأة العمل الشاق وقلت الجراية تمرد العمال ..واتجهوا نحو المعابد الجنائزية الكبرى مثل (تحتمس الثالث)(مرمبتاح) (رمسيس الثاني) (رمسيس الثالث)؛ احتجاجاً علي سوء أوضاعهم.. وحسب نص بردية الإضراب، ينقل "هاريس" شكوى العمال ومطالبهم فيقول:"ليس لدينا ملابس ولا زيت ولا سمك ولا خضر .. أرسلوا للفرعون سيدنا العظيم هذه الشكوى .. أرسلوها أيضا إلي سيدنا الوزير..حتى يمدنا بما نعيش به ..إننا سنجلس هنا حتى تجاب مطالبنا...."

فقد هدر صوت العمال الجوعى كالشلال.. وانهالوا علي سكرتير الأمير (ياسر)المهيمن علي مصلحة العمل في حكومة طيبة ولما خرج إليهم صرفوا... إنا مسوقون هنا بدافع الجوع والظمأ..فليس لديهم الطعام ولا الملبس .. وكتبوا للفرعون يشرحون حالتهم ويبلغونه مطالبهم .. فلما وصل صوتهم واشتدت ضغوطهم وعدهم الأمير بخمسين كيسا من القمح يرسلها إلي عملهم .وهكذا عبر العامل المصري عن غضبه وثار لكرامته وأصبح الإضراب سلاحا يستخدمه العامل المصري للدفاع عن حقوقه وكرامته منذ ذلك اليوم.